

الأطباء في مصر القديمة

تذكر "بردية إيبيرس الطبية"^(١) أن المصريين القدماء، عرفوا ثلاث فئات من الأطباء الممارسين، وهم: "سينو" *Simou* أو (*saounou* "ساونو")، وهو الطبيب الممارس بكل معنى الكلمة، الذي يستعين بما تتضمنه الكتب الطبية ويتجاربه العلاجية في هذا المجال؛ ثم هناك أيضاً الكهنة (وعبو *ouabou*) التابعين للإلهة "سخت"،^(٢) وهم، من خلال رعاية ربهم هذه، يقدمون علاجاً ذو سمة دينية؛ ونجد كذلك السحرة (*saou* ساو) الذين يقدمون أساليب سحرية لشفاء المرضى. لعلنا نلاحظ هنا، مدى تطور وتباين المفاهيم الطبية في مصر القديمة.

يتبين أن المصريين، على غرار كافة شعوب العصور القديمة، كانوا يعتقدون أن المرض لا يعدو أن يكون سوى ظاهرة "ما فوق الطبيعة"، أو بتحديد أكثر: إن روح شريرة (روح أحد المتوفين على سبيل المثال) قد استولت على جسد إنسان ما من الأحياء واستحوذت عليه، بل ربما يكون المرض أيضاً أحد استتباكات غضب وثورة "سخت". ولذا، فلعنا لا نتعجب، أن المعالجن، كانوا، بداية، يتلون بعض الصيغ السحرية أو التعازيم الدينية، للقضاء على الآلام والأوجاع. ولكن، بعد ذلك، بدأت تتراءى الناحية الفعلية المنطقية في إطار الطب المصري القديم؛ كما عملت التجربة والممارسة على بلورة فعالية الكثير من العلاجات.^(٣)

بداية من "الدولة القديمة" كان البلاط الملكي يضم عدداً من الأطباء.^(٤) كان الملوك يجدون علاجهم لدى أطباءهم المتخصصين الذين يحملون لقب: "الطبيب الأعلى"؛ أو "المدير العام لأطباء مصر العليا والسفلى". غالباً، كان هؤلاء الأطباء الرفيعون المنزلة، يشغلون أيضاً مهنة "كاهن".

(١) بردية إيبيرس *Ebers*: ليس من المعروف على وجه التحديد أين عثر على هذه البردية، لكن من المرجح أنها كانت محفوظة في مقبرة في البر الغربي لمحافظة الأقصر، وقد ظلت في حوزة الأمريكي إدوين سميث، الذي كان يعيش في الأقصر لمدة عشر سنوات، ١٨٦٢-١٨٧٢، حين اقتناها جورج إيبيرس، لذا عرفت باسمه. ترجمت البردية إلى اللغة الألمانية في عام ١٨٩٠، ثم توالى الترجمات. يعود تاريخ البردية إلى عام ١٥٥٠ ق.م. وتعد أقدم كتاب طبي تم اكتشافه إلى الآن. يبلغ طولها حوالي المترين، وتعرض لتسعة وعشرين مرضاً من أمراض العيون، وثمانية عشرة مرضاً من أمراض الجلد، وخمسة عشرة مرضاً من أمراض البطن، إضافة إلى واحد وعشرين مرضاً من أمراض السعال. كما تحتوي على ٧٠٠ نواة و ٨٠٠ تركيبة دوائية من أصل نباتي أو حيواني.

(٢) سخت: معناها "القوية" كانت ربة لبوة، لها معابد أينما ذهب الأسود لشرب الماء. كان مقر عبادتها في مدينة منف، حيث اعتبرت زوجة بتاح ووالدة نفر توم إله اللوتس. اعتقد أنها مظهر لعين رع في حالة غضبه ومهلكة أعداء الشمس، غير أن الناس عرفوا كيف يقيمون طقوس "ترضية سخت" لجعل هذه الربة المتعطشة للدماء، وسيدة رسل الموت وسبب الأوبئة، ربة خيرة. فمن عرفت كيف تقتل تعرف كيف تشفى، وهكذا كون كهنة سخت "جمعية من أقدم جمعيات الأطباء والجراحين البيطريين.

(3) Ghalioungui P., "Le plus Anciennes femmes-médecines de l'histoire", *BIFAO*, 75, 1975, p. 159.

(٤) نذكر بعضاً من أطباء البلاط الملكي: الطبيب ابى الثاني، الأسرة السادسة (٢٤٢٠-٢٢٧٠ ق.م.)؛ الطبيب إيري-ن-لخت، الأسرة الخامسة (٢٥٦٠-٢٤٢٠)؛ الطبيب إيري-ن-لخت الثاني، الأسرة العاشرة (٢٠٠٠ ق.م.)، كان مفتش أطباء البلاط الملكي والطبيب الملكي للأمراض الباطنية؛ الطبيب عنخ الثاني، عميد أطباء البلاط الملكي (٣٢٠٠-٢٢٧٠ ق.م.)؛ الطبيب بسماتيك منب، الأسرة ٢٦، كبير أطباء الأسنان في البلاط الملكي (٦٦٣-٥٢٥ ق.م.)؛ الطبيب ميرا، الأسرة السادسة، وزير الملك تتا، مصطبته بمقارة، رئيس مجموعتي أطباء البلاط الملكي (٢٤٢٠-٢٢٧٠ ق.م.)؛ الطبيب مد نفرو، مملكة قديمة، طبيب البلاط الملكي ورئيس أطباء العيون في البلاط الملكي (٣٢٠٠-٢٢٧٠ ق.م.)؛ الطبيب نى عنخ رع، الأسرة الخامسة، مفتش أطباء البلاط الملكي، مقبرته بالجيزة (٢٥٦٠-٢٤٢٠ ق.م.)؛ الطبيب نى عنخ سخت، الأسرة الخامسة، كبير أطباء الأسنان في البلاط الملكي، ومقبرته بمقارة (٢٥٦٠-٢٤٢٠ ق.م.).

الأطباء في مصر القديمة

لقد اعتبروا من عباد الرب "تحت" (١) بصفة خاصة باعتبارهم "كتبة" أيضاً، وعلماء. وفي مجالنا هذا تحدث المؤرخ اليوناني "هيرودوت" قائلاً: "دأب كل طبيب مصري على علاج نوع واحد من الأمراض. وبدا عدد الأطباء المصريين هائلًا في كل أنحاء مصر. البعض منهم قد تخصص في أمراض العيون، والآخر في علاج أمراض الرأس، وغيرهم تخصصوا في الأسنان، وآخرون أطباء باطنيين؛ وهناك من كان اختصاصهم في الأمراض المعوية. ولا شك أن هذا التخصص الطبى يرجع أساساً إلى أكثر العصور قديماً. يفسره، بوجه خاص، الانتشار الملحوظ، لأمراض العيون (كتاركت، تراكوما) والمثانة (بلهارسيا) والأمعاء (دوسنتاريا). (٢)

كان أطباء مصر القديمة متنوعي التخصص، وكانوا على درجات متفاوتة وكانوا أيضاً ذو مراتب متباينة، إلا أنهم كانوا مرتبطين برباط ديني واحد هو عبادة "تحت" راعي مهنتهم.

اعتبر اللوم "تحت" هذا مبدع الطب، فقد كان طبيباً وطبيب عين حورس. ذكرت بردية إيبيرس أن "الأطباء إذا ما اتبعوه يمنحهم مهارة الشفاء". كان الأطباء يعبدونه فوق ذلك لأنه إله العلم، الذي ابتكر الكتابة وألف الكتب. كان الأطباء بطبيعة الحال مهرة في الكتابة والقراءة، وقد سبق لكل منهم أن تمرن على الأعمال الكتابية. (٣)

كان الطبيب يتعلم أولاً في مدارس الكتبة، فإذا ما تخرج منها وأراد تعلم مهنة الطب احتاج إلى تعليم خاص. لا بد أنه كانت هناك في وقت ما طريقة للتلمذة أو التمرين أو التخرج يقوم بها طلاب الطب على أيدي أطباء مهرة يتعلمون منهم عملياً ونظرياً تعاليم الطب تماماً، كما يتعلم الصبية من أصحاب الحرف حالياً. المعروف أن هناك مدارس خاصة كانت مقامة خصيصاً لتدريب طلبة الطب ملحقاً بالمعابد (٤)

لم تكن في مصر القديمة عملات مالية أو نقود، فالتعامل المالي كان بطريق المبادلة أو نظير خدمة، أما أطباء البلاط الملكي فكانت مكافأتهم تصرف لهم من خزينة القصر، وكانوا يعطون الهدايا كل بحسب درجته ورضى فرعون عنه، شأنهم في ذلك شأن كل موظفي البلاط الملكي. لما كان أمثال هؤلاء الأطباء من الحاشية فقد كانوا يمنحون السكن والغذاء والهدايا في ظروف خاصة. أما الأطباء الذين يشرفون على صحة جماعة من الجماعات

(١) تحت أو توت إله الحكمة عند الفراعنة. يعتبر من أهم الآلهة المصرية القديمة، ويُصور برأس أبو منجل، نظيره الأنثوي الإلهة ماعت. لقد كان ضريحه الأساسي في أشمون حيث كان المعبد الأساسي هناك. اعتبر قماء المصريين أن الإله تحت هو الذي علمهم الكتابة والحساب، وهو يصور دائماً ماسكاً بالقلم ولوح يكتب عليه. له دور أساسي في محكمة الموتى، حيث يؤتى بالميت بعد البعث لإجراء عملية وزن قلبه أمام ريشة الحق ماعت. يقوم تحت بتسجيل نتيجة الميزان. إذا كان قلب الميت أثقل من ريشة الحق - فيكون من المخطئين العاصين - يُلقى بقلبه إلى وحش مقترس تخيل اسمه صمموت فيلتهمه وتكون هذه هي النهاية الأبدية للميت. أما إذا كان القلب أخف من ريشة الحق ماعت، فمعنى ذلك أن الميت كان صالحاً في الدنيا فيدخل الجنة يعيش فيها مع زوجته وأحبائه، بعد أن يستقبله أوزيريس.

(2) GHALIOUNGUI, P., *Magic and Medical Science in Ancient Egypt*, London, Hodder & Stoughton, 1963, p. 76

(٣) حسن كمال، الطب المصري القديم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٤٥.

(٤) قام دارا الأول ملك الفرس (٥٢١ ق.م - ٤٨٦ ق.م) الذي حكم مصر، والذي دأب صيته كسياسي عظيم بإصلاح كثير من المعاهد المصرية المتهدمة، فأرسل أحد موظفيه، وقد كان كاهناً مصرياً وكبيراً للأطباء ويدعى "أوزاحورسنت"، إلى مدينة صا الحجر لترميم "بيت الحياة"، وهي مدرسة كان يتعلم فيها الأطباء - غالباً الكهنة - وكان لها شأن كبير. ذكر الطبيب ما فعله فألقى ضوءاً هاماً على الأحوال الطبية حينذاك.

الأطباء في مصر القديمة

فلا يبعد أن كانوا يكافئون بالطريقة التي يكافأ بها سائر أفراد الجماعة. هناك أطباء ملحقون بالمعابد يتعاطون معاشهم من ميزانية تلك المعابد. لقد كانت ميزانية المعابد في عهد الإمبراطورية الحديثة (١٥٥٥-٧١٢ ق.م.) ضخمة لكثرة الأوقاف التي كانت موقوفة لها. يمكن القول أن أغلب الأطباء كانوا يتمتعون بضمان اجتماعي اقتصادي، وأن حالتهم المالية لم يتحكم فيها تعداد المرضى أو وفرتهم. كان الأطباء في مركز مالي يسمح لهم بعلاج الغني و الفقير على حد سواء.^(١)

كان الطبيب يتعلم أولاً في مدارس الكتبة، فإذا ما تخرج منها وأراد تعلم مهنة الطب احتاج إلى تعليم خاص، ولابد أنه كانت هناك في وقت ما طريقة للتمرين أو التخرج يقوم بها طلاب الطب على أيدي أطباء مهرة يتعلمون منهم عملياً ونظرياً تعاليم الطب، وكانت هناك مدارس خاصة مقامة خصيصاً لتدريب طلاب الطب وهي ملحقة بالمعابد.

كان هناك طائفة من الكهنة أطلق عليهم اسم كهنة سخمت حيث جاء ببردية إبيرس الطبي في بداية الفقرة الخاصة بأوعية القلب^(٢): "أى طبيب باطنى أو جراح (كاهن سخمت) وأى طبيب نفسانى يضع يديه أو أصابعه على الرأس أو على مؤخرة الرأس فإنه بذلك يفحص القلب". هذه العبارة قسمت أفراد الأسرة الطبية إلى ثلاثة أقسام، كلهم قاموا بفحص النبض. أما بردية إدوين سميث فقد وردت بأوله عبارة تحوى ذكر "كاهن سخمت" هي "إذا وضع كهنة سخمت أو أى طبيب باطنى يديه..." وأهمل ذكر السحرة اهمالاً واضحاً. ليس من المستبعد أن يكون المقصود بعبارة "كاهن سخمت" هو الطبيب الجراح، فالمعبودة سخمت تحب دم الإنسان وهي قديسة النار، ولما كان الجراح يمارس في مهنته الدماء ويعالج الجروح بالنار (الكي)، فليس بعيداً أن كانت سخمت قديسة الجراحين.^(٣)

من أشهر أطباء مصر القديمة الطبيب إمحوتب.^(٤) عاش الطبيب إمحوتب ٣٨٠٠ ق.م. الذى كان سياسياً ومهندساً معمارياً، فهو الذى بنى هرم سقارة المدرج، وهو ابن الإله بتاح، وكان له معبد في سقارة باسم معبد إمحوتب، حيث كان يتعلم الأطباء، وصار مصحة يزورها المرضى من جميع أنحاء الأرض، حيث انتشرت عنه أخبار كثيرة تعلن نجاحه في شفاء الكثير من الأمراض والعقاير الناجحة التي اخترعها، لقد أصبح معبده مدرسة كبيرة لتدريس مهنة الطب، والتي أصبحت بعد موته مقراً لعبادته.^(٥)

(١) حسن كمال، المرجع نفسه، ص. ٤٥.

(٢) بردية إبيرس، وصفة رقم ٨٥٤.

(3) Elisabeth R., *Les Medecins de l'Egypte Pharaonique*, Brussels, 1958, p. 9.

(٤) أمحوتب هو بانى هرم زوسر المدرج، وهو أول مهندس معمارى في التاريخ، وكذلك أول طبيب، وأحد أشهر المهندسين في مصر القديمة، رفع إلى درجة معبود بعد وفاته وأصبح إله الطب.

(5) Noblecourt C., *Le Patrimoine de l'Égypte ancienne*, Paris, 2006, p. 43.

يعتقد أنه كاتب بردية أدوين سميث *Edwin Smith Papyrus* (٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م.) أقدم مخطوطة طبية وصلتنا،^(١) تحتوي على مشاهداته في التشريح، وأعراض أمراض، وطرق للعلاج، ومن بينها علاج الكسور. لقد أحدثت هذه البردية - أدوين سميث - انقلاباً في المفاهيم السائدة عن الطب المصري القديم إذ اعتبرت "أول كتاب جراحي في العالم". قدمت هذه البردية "أول دليل على وجود طب منطقي عقلى أساسه الخبرة والملاحظة وعلم تشريح سليم". لقد اعتمدت أساليب علمية تقترب من الأساليب العصرية، فقد استندت على معلومات جراحية غير متوافرة في ذلك الزمن، وعلى فحص دقيق يدل على معرفة بالتشريح والتشريح السطحي بالإضافة إلى وظائف الأعضاء وعرفت الأجهزة المختلفة وعلاقة أجزائها ببعضها وربط بين ظواهر متلازمة في أجزاء متباعدة من الجسم تكون منها صوراً اكلينيكية مميزة. بعد تتبع مراحل المرض والتشخيص والعلاج لكل مرحلة، كان الطبيب ينتقل إلى التوجه وكيفية تصور المرض والشفاء.^(٢)

كان إمحوتب يملك الكثير من المعرفة في الطب، حيث ألف مخطوطات بردية للعلاج، وكان على علم في فن التحنيط وعلم التشريح بالإضافة لمعرفته الكبيرة في علم النجوم. قام إمحوتب باختراع الكثير من العقاقير الطبية، كذلك قام بتوحيد الآلهة المصرية بإله واحد ولكن لا توجد مصادر مؤكدة تثبت هذه المعلومة.^(٣)

لقد ظلت شهرته منتشرة حيث كرست له عدة أبنية في كثير من المعابد بمنطقة طيبة في معابد الكرنك، الدير البحري، دير المدينة وجزيرة فيلة، كما بنى له بطلميوس الخامس معبداً. لقد أله إمحوتب لاحقاً كإله للشفاء وخصصت له ثلاثة معابد على الأقل في منف وطيبة وفيلة حيث كان الكهنة يدرسون الطب ويعالجون المرضى.^(٤) يمكن بالتالي اعتبار هذه المعابد أول جامعات طبية، أو أول مستشفيات جامعية.

حصل إمحوتب على الكثير من الألقاب من ضمنهما رئيس المهندسين، وسيد النحاتين ورئيس الوزراء، ولقب باسم ابن بتاح، ونال إمحوتب شهرة عظيمة وواسعة عند الإغريق أيضاً، الذين سموه أسكليبيوس^(٥) *Asclepius*، وعبدوه كإله في طيبة. نجد إمحوتب مصوراً برجل من دون رموز ملكية أو إلهية، ولكن برأس حليق كرأس كاهن أو نجده في الكثير من التماثيل وهو جالس على ركبتيه ممسكاً بأوراق البردى، بينما يلبس على رأسه قلنسوة "بتاح" إله مدينة ممفيس.^(٦) بعض صورته تبينه جالساً على كرسي وعلى حجره لفة من أوراق البردى أو تحت إبطه. ثم كانت

(١) يعتقد أن تاريخ هذه المخطوطة يرجع إلى سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد وربما كانت منقولة من النص الأصلي لإمحوتب الذي سبق هذا النص المنقول بنحو ١٠٠٠ عام. ويمكن رؤية مخطوطة "إدوين سميث" وهي موجودة في "متحف بروكلينتشيلدرين" في نيويورك. تصف المخطوطة ٤٨ من حالات المرض.

(2) Garry T. G., *The Home of the Occult Sciences, with Special Reference to Imhotep, the Mysterious Wise Man and Egyptian God of Medicine*, London, 1931.

(3) Ryholt K., "The Life of Imhotep?", *Actes du IXe Congrès International des Études Démotiques*, edited by G. Widmer and D. Devauchelle, Bibliothèque d'étude 147, Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 2009, p. 307.

(٤) بول غليونجي، الطب عند قدماء المصريين - مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٠٤.

(٥) هو إله الطب والشفاء عند الإغريق في العالم القديم، يقابل إمحوتب عند قدماء المصريين، ظهرت عبادته في مصر في مدينة أبيدوس، ورمزه الثعبان المقدس.

(6) Aboelsoud. H., *Herbal medicine in ancient Egypt*, *Journal of Medicinal Plants Research*, Vol. 4 (2), 2010, p. 84.

الأطباء في مصر القديمة

تمثيله تصويره واقفا وله ذن تشبه ذن الآلهة وحاملاً علامتى العنخ (الحياة) والصولجان (علامة الحكم). يمكننا تفسير لفة البردى بأنه مصدر المعرفة يحتفظ بها الكهنة والكتاب فى بيت الحياة والتي كانت مدارس خاصة للتدريس تسمى ببرعنخ أى بيوت الحياة، ملحقة بالمعابد تدرس فيها العلوم الطبية والنباتات الطبية.⁽¹⁾

كان الأطباء يمثلون جزءاً من النخبة في مجتمع اتسمت فيه الطبقات المختلفة بالتحديد الشديد، حيث يجاورون الكهنة والقادة العسكريين ومسؤولى المناجم والزراعة ومخازن الغلال العامة. كما كانوا يشاركون كذلك فى ترتيب هيكل الموظفين فى العاصمة أو فى الأقاليم، ويتمتعون بألقاب مثل الطبيب الرئيس، ورئيس الأطباء، والطبيب المفتش، والطبيب الرئيس للشمال، والجنوب، وطبيب البلاط، والطبيب المفتش للبلاط، وفي النهاية الطبيب الرئيس للملك. حسب ما يبدو لم يكن الأطباء يطلبون أتعاباً، لكنهم كانوا يتقاضون، باعتبارهم موظفين فى الدولة، راتباً ثابتاً في صورة غذاء و ثياب فى أغلب الأحيان. كان بعض الممارسين يطلقون على أنفسهم الطبيب الساحر أو الطبيب الكاهن، وكان لعدد منهم وظيفة رسمية فى البلاط أو فى المعبد، حيث يقومون بدور الطبيب البيطرى، يقدرون قيمة الحيوان المقدم للقربان أو للإطعام، وآخرون مخصصون للمقابر، يشرفون على التحنيط وعلى التنفيذ الدقيق للطقوس الجنائزية، إضافة إلى فريق آخر يصاحب الجيوش البرية فى حملاتها العسكرية.⁽²⁾

يذكر هيرودوت أن الأطباء المصريين كانوا جميعاً من المتخصصين، فهناك طبيب لأمراض العيون، وآخر لأمراض البطن، وثالث لأمراض النساء. لكن يجب أن نزن هذه التأكيدات: ففي القرن الخامس قبل الميلاد، إذا استطعنا أن نعتبر أطباء العاصمة من المتخصصين، فإننا لا نستطيع أن نقرر الشئ نفسه بالنسبة للأقاليم، فعندما نعرف الأسماء، وبشكل جزئى، السيرة الذاتية لعدة مئات من الأطباء، لكن ليس من بينهم من هو فى شهرة أمحوتب الذى عاش فى عام ٢٨٠٠ ق.م.

أحمد عبد المنعم سيد أحمد

مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب - جامعة بور سعيد

(1) Ryholt. K., *op. cit.*, p. 210.

(2) Noblecourt. C., *op. cit.*, p. 46.